الاستشراق الفرنسي في الجزائر وآليات الاستلاب الحضاري

-اللغة العربية أنموذجا-

French orientalism in Algeria and the mechanisms of cultural alienation - Arabic is a model-

عقيلة بعيرة *

جامعة باتنة 1

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

akilabaira@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال:**2024-01-11** تاريخ القبول: **2024-06-20**

ملخص

يعد الاستشراق عموما ظاهرة فكرية ثقافية علمية حضارية تسعى لرصد ودراسة كل ما يتعلق بالشرق والشرق الإسلامي خصوصا وبرسم معالمه المختلفة لدى الشعوب الغربية.

لذلك فقد ظهرت عديد المدارس التي نشطت في هذا المجال، وكانت المدرسة الفرنسية أبرزها، لكونها شكلت المركز الاستراتيجي منذ القديم؛ أي العصر الوسيط إلى يومنا هذا.

وقد سعت فرنسا جاهدة إلى تنمية هذه الحركة، باعتبارها قوة فاعلة في سياساتها الاستعمارية التوسعية وعاملا من عوامل الهيمنة الثقافية والفكرية على حضارات وشعوب الشرق المستهدفة وهذا نابع من الخلفية التاريخية التي سيطرت على الذاكرة الفرنسية، حيث قال المستشرق الإيطالي ميشال أنجلو 1886-1940: أن ظاهرة الاستشراق والاستعمار وجهان لعملة واحدة؛ هي استلاب الأوطان والسيطرة على إمكانياتها المادية والبشرية، والإشكالية التي تفرض نفسها في هذا السياق هي: كيف وظف الاستشراق الفرنسي اللغة كآلية لتحقيق أهدافه الاستعمارية؟ هذا ما ستجيب عليه هذه الورقة البحثية إن شاء الله.

الكلمات المفتاحية: استشراق؛ هوية؛ لغة؛ حضارة؛ استعمار.

Abstract:

Orientalism is generally an intellectual, cultural, scientific and cultural phenomenon that seeks to monitor and study everything related to the East and the Islamic East in particular and to draw its different features among western peoples.

*-المؤلف المُراسل.

Therefore, many schools have emerged that have been active in this field, most notably the French school, as it has been the strategic centre since ancient times, i.e. the Middle Ages to this day.

France has striven to develop this movement, as an active force in its expansionist colonial policies and a factor of cultural and intellectual domination of the target civilizations and peoples of the East, and this stems from the historical background that dominated French memory, with the Italian orientalist Michelangelo 1886-1940 saying that the phenomenon of orientalism and colonialism is two sides of the same coin: the alienation of homelands and control of their material and human potential, and the problem that imposes itself in this context: How did French orientalism use language as a mechanism to achieve its colonial goals? This is what this research paper will answer, God willing

Keywords: keywords ; keywords; keywords; keywords; keywords(keywords must not exceed 05 words)

مقدمة:

الاستشراق ظاهرة ثقافية، تسعى لرصد ودراسة كل ما يتعلق بالشرق عموما والشرق الإسلامي خصوصا، ورسم معالمه المختلفة لدى الشعوب الغربية تحقيقا لغايات حضارية تغريبية على المدى البعيد، لذلك فقد سعى الغرب –وبعد تحديد أهدافه الاستراتيجية- إلى إنشاء العديد من المدارس التي نشطت بقوة في هذا المجال –خاصة بعد انهيار الدولة العثمانية-.

وقد كانت المدرسة الاستشراقية الفرنسية أبرز هذه المدارس، لكونها مركزا استراتيجيا منذ القديم، وهذا نظرا لتعدد وتنوع صلاحياتها ومدى تأثيرها في مختلف المدارس الغربية الاستشراقية الأخرى، منذ العصر الوسيط إلى يومنا هذا.

وقد سعت فرنسا جاهدة إلى تنمية هذه الحركة بوصفها قوة فاعلة في سياساتها الاستعمارية التوسعية وعاملا من عوامل الهيمنة الثقافية والفكرية على حضارات شعوب الشرق المستهدفة وهذا طبعا نابع من الخلفية التاريخية التي سيطرت على الذاكرة الفرنسية المتعطشة للاستعمار والاحتلال والسيطرة على الآخر واستغلال كل إمكانياته المادية والبشرية والحضارية، وفي هذا السياق يقول المستشرق الإيطالي الشهير ميشال انجلو (1886-1940) "إن ظاهرة الاستشراق والاستعمار وجهان لعملة واحدة هي استلاب الأوطان

والسيطرة على إمكاناتها المادية والبشرية"[1]، لذلك فقد حاولت هذه المدارس الاستشراقية خاصة الفرنسية تحديد أهم المفاتيح الأساسية التي تمكنها من الولوج إلى عالم الشرق الإسلامي، وإحداث نوع من الخلخلة المفاهيمية لأهم مقوماته الحضارية والثقافية لذلك لم تجد عنصرا أكثر مركزية وأساسية كاللغة العربية للعب على أوتارها، بوصفها أهم آلية للحفاظ على الهوية الوطنية والحضارية للشعوب، لكونها القاسم المشترك بين جميع أبناء الوطن خاصة في الشمال الأفريقي والجزائر بالتحديد، يقول المستشرق الألماني رودي تارث (1901-1983م) Rudi Paret إن مصطلح الاستشراق يحمل دلالتين إحداهما تعني علما يختص بفقه اللغة خاصة، أما المعنى الثاني فيتعلق بعلم الشرق.

يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون (1915-2004م) Rodison Mexim إن الاستشراق هو "دراسة حضارة الشرق منذ القرن الثامن عشر الميلادي وقد دخلت كلمة الاستشراق معجم اللغة الفرنسية عام 1838م"[2].

أما بالنسبة للكتاب والمفكرين العرب الذين تطرقوا في دراستهم إلى الاستشراق، ومنهم أحمد الإسكندري الذي قال: إن وظيفة الاستشراق والمستشرقين تتمثل في دراسة الشعوب الشرقية "من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها أو علومها وآدابها"[3].

وقد أوضح كثير من المفكرين العرب، الموقف العدائي للمستشرقين الغربيين تجاه مكونات العالم العربي، خاصة ما يتعلق بالإسلام، وهو موقف قديم "ولا شك أن هذا الموقف قد اكتسب وما زال يكتسب أبعادا جديدة وخطرة لا سيما في جوانبه السياسية والثقافية منذ الحروب الصليبية حتى اليوم، ولكن هذا الموقف في جوهره النابع من العداوة في العقيدة ليس بجديد، فهو موقف الكافرين، موقف الإنكار للرسالة والتكذيب للرسول

[1] - محمود حمدي زقزوق،(1997)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، ص18.

[2] - أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، ص25.

[3] - أحمد الاسكندري وآخرون، (1934)، المفصل في تاريخ الأدب العربي، ج2، مطبعة مصر، القاهرة ، ص108.

صلى الله عليه وسلم، وحول القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، بوجه خاص لتشكيك المسلمين في دينهم ومحاولة ردهم عنه"[1].

والمتفق عليه هو أن الحروب الصليبية كانت أهم أسباب الاهتمام بالدراسات الاستشراقية، فبعد "انهزام الصليبيين في القدس، بدأ الرهبان يحرضون شعوبهم على غزو الشرق واعتبار هذه الحرب حربا دينية"[2].

أما الناقد العربي إدوارد سعيد، فيرى أن البدايات الفعلية للاستشراق "كانت بانعقاد مؤتمر مجمع فينا الكنسي عام 1312م الذي كان من أهم توصياته إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية مثل؛ جامعة أكسفورد،جامعة كامبريدج، جامعة بولونيا، جامعة روما، جامعة السوربون"[3].

ومما يؤكد الأهداف والنوايا الأساسية من الاستشراق ما أورده مؤسس كرسي اللغة العربية في جامعة كامبريدج سنة 1636م بقوله: "ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الآداب الجيدة بإلقاء الضوء على المعرفة وهي ما تزال بعد محتشمة في نطاق هذه اللغة التي نسعى لتعلمها، ولكننا نهدف أيضا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة النصرانية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات"[4].

لذلك كان من بين الأهداف الأساسية التي سعى الاستشراق الفرنسي إلى تحقيقها في الجزائر، تشويه الدين الإسلامي، والتشكيك فيه، بتشويه وتحريف اللغة العربية عن مقاصدها الدلالية، وتهميشها وإثارة النعرات القومية والجهوية تمزيقا وإضعافا للوحدة

---

[1] - أحمد عبد الحميد غراب، (1991)،رؤية إسلامية للاستشراق، المنتدى الإسلامي، ط2، القاهرة، ص11.

[2] - عقيلة حسين، (2004)، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، ط1، دار ابن حزم، بيروت ، ص37.

[3] - شايب الدور محمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2009-2010، ص21.

[4] - عبد اللطيف الطباوي، (1991)، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، ترجمة: قاسم السمرائي، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض، م ع السعودية ، ص22.

الوطنية، وتمهيدا لتفكيك المجتمع لتسهيل القضاء عليه، وذلك بزرع وتشجيع التغريبيين، ونشر الثقافة الغربية، وتؤكد أغلب الدراسات التاريخية، على أن أغلبية المستشرقين في العالم الإسلامي وفي الجزائر خاصة كانوا جواسيس وعسكريين مندسين في جميع القطاعات في المجتمع الجزائري، كانت مهمتهم الأساسية التمهيد لدخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر بنقل الأخبار أو الترويج له على أنه مدنية وتحضر لصالح الشعوب المستعمرة.

1.الاستشراق الفرنسي في الجزائر:

يعد الاستشراق الفرنسي أو المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر أكثر المدارس الاستشارقية تأثيرا وتفاعلا مع العالم الإسلامي عموما والجزائر خصوصا، وهذا لعدة اعتبارات أهمها:

- احتفاظ الذاكرة الفرنسية بأحداث تاريخية مؤلمة جعلتها أكثر تعطشا للانتقام واستعادة مجدها الضائع في السيطرة على هذه الأقطار،

- ولعل أهم الأحداث التي بقيت راسخة في أذهان الفرنسيين هي مجابهتم ومواجهتهم للمسلمين في أثناء الفتوحات الإسلامية في أوروبا.

- إضافة أيضا إلى تزعمها الحروب الصليبية الغربية.

- حصولها على معظم أجزاء الدولة العثمانية بعد تفكيكها، إضافة إلى تقاطع مصالحها مع العالم العربي، خاصة الجزائر، حيث أبدت فرنسا الرغبة الصريحة في إبقائها تحت سيطرتها الدائمة ولنفوذها طمعا في ثرواتها وموقعها. أي أن الاستشراق الفرنسي يحمل في ثناياه طبيعة الصراع الديني، فقد كان احتكاكها الدائم والمستمر بالإسلام والمسلمين سببا في توليد هذه الأحقاد الدفينة التي وجدت في الدراسات الاستشراقية آلية متكاملة لتحقيق كل أهدافها.

وتشير أولى الدراسات الاستشراقية أن أول مستشرق اهتم بالإسلام وقضايا المسلمين هو جيراردي أرليان وهو أول فرنسي اهتم باللغة العربية وآدابها، وهناك رأي آخر يقول بأن

"أول من استشرق في فرنسا هو غليوم بوستيل (1510-1581)"[1] وهذا ما أورده يوسف حيرا.

ويعود الفضل لهذا المستشرق الفرنسي الذي ذاع صيته فقربه ملك فرنسا فرنسوا الأول الذي كان بدوره يجيد العربية والتركية وألحقه بالسفارة التركية وكلفه بنقل المخطوطات الشرقية إلى باريس، لقد تمكن بوستيل بفضل جهوده الجبارة أن يؤسس ويورث اهتماماته للأجيال من خلال تلاميذه الذين سهروا على نشر أفكاره في شتى أنحاء أوروبا، بالفضل له في ظهور الاستشراق وانتشاره، ولم يقف بوستيل عند هذا الحد بل أنشأ عام 1539م، أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرونس في باريس.

كانت الجزائر بوصفها جزءا لا يتجزأ من الشرق الإسلامي، محطة اهتمام المستشرقين والسياسيين الفرنسيين نظرا لتعدد امتيازاتها وثراء أرضها وتنوع جغرافيتها، لذلك فقد كان التخطيط لغزوها واحتلالها بتكامل جهود جميع الفرنسيين، وفي مقدمتهم المستشرقون الذين كانوا موجهين حقيقيين للساسة والعسكريين الفرنسيين وهذا نظرا لما "بلغوه من علم ومعرفة عن الجزائر وشعبها وعقيدتها ولغتها، وعن ثقافتها وطبيعة أرضها، وعن سياستها ونفسية أهلها"[2].

لذلك فقد شكل المستشرقون الفرنسيون النواة الأولى والمحرك الفعلي لاحتلال الجزائر، وقد بلغ اهتمامهم بها، سعيهم الحثيث لترجمة كل ما كتبه الأوربيون والأمريكيون عن الجزائر، لذلك فقد "اعتمدت فرنسا وراهنت على مستشرقيها أكثر من اعتمادها ومراهنتها على جيوشها، فالخطط العسكرية تبنى على أداء هؤلاء وأفكارهم، والسيطرة على الأوضاع في الجزائر تعتمد على اقتراحاتهم، والتوسع شرقا وغربا مبني على ما تجود به قرائحهم من خديعة ومكر، وهذا ما يترجم أول بيان أصدره الفرنسيون عشية حملتهم المشؤومة على الأهالي"[3].

[1] - أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وتأثيرها في الأدب العربي المعاصر، ص60.

[2] - شايب الدور محمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، مرجع سابق، ص36.

[3] - شايب الدور محمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، مرجع سابق، ص37.

وكان صاحب البيان هو المستشرق سالفيستير دي ساسي وهذا ما يؤكد مقولة الاستشراق والاستعمار وجهان لعملة واحدة، أما بالنسبة لأهم آلية اعتمد عليها هؤلاء المستشرقون لتحقيق أهدافهم فهي اللغة العربية، لقد وظفوها كآلية للاستلاب الحضاري، وقد تم ذلك وفق مجموعة من المراحل:

المرحلة الأولى: وقد تمحورت هذه المرحلة حول:

استكشاف البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجزائري: ويشكل هذا العنصر أهم عامل سعى المستعمر الفرنسي إلى تحقيقه لإحكام سيطرته ونفوذه على الجزائر، لهذا فقد كان بأمس الحاجة إلى من يجيدون اللغة العربية كالمترجمين والمتعاونين (الجواسيس) لتحقيق التواصل مع الأهالي لجس النبض وكشف تركيبتهم النفسية وموقفهم من الاستعمار وطريقة تفكيرهم "وكان هؤلاء المترجمون من العسكريين أو من الإداريين التابعين لسلطة الاحتلال، أو من العرب الذين رافقوا نابليون بونابرت بعد عودته من مصر أو من يهود الجزائر، الذي كانوا على معرفة بالعربية والفرنسية، ولم يقتصر دور هؤلاء على دور الوسيط بين الجماهير والمحتل، إنما كانوا بمثابة الجواسيس والعيون يترصدون نبض الشعب ويرصدون ركائزه الفكرية والثقافية، وما إن تمكنوا من تذليل الصعوبات وتخطي العقبات، وسيطرة الجيوش على أهم المدن حتى سارعوا لجمع المخطوطات والوثائق وعادوا بأكداس اشتغلوا بدراستها وترجمتها والتأليف استنادا عليها، وازداد هذا النشاط حتى تشكل المكتب العربي العسكري"[1].

المرحلة الثانية: وهي مرحلة مفصلية، لكون الاستعمار ومن خلفه المستشرقون سعى إلى تحقيق غاية أساسية ألا وهي الاستلاب اللغوي، فما معنى ذلك وكيف تم؟

الاستلاب اللغوي: في هذه المرحلة وبعد تمكن المستشرقين وخلفهم الاستعمار من اللغة العربية، وتمكنهم من الاستغناء عن وسائط التواصل مع الأهالي، سعوا إلى نهج سياسة مبنية على التبادل اللغوي، "تعلم اللغة العربية وتكييف مبناها ومعناها بحسب

[1] - أبو القاسم سعد الله، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي،ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ص9 .

الأهداف الاستراتيجية التي سعى المستعمر إلى تحقيقها على المدى البعيد وأهمها طمس المعالم الحضارية والثقافية للشعب الجزائري.

أي أن المستشرقين خصصوا هذه المرحلة لاحتلال العقول والنفوس لطمس كل معلم من معالم الهوية وذلك بمنع الشعب من تعلم لغته الأصلية والحفاظ عليها، ومن جهة أخرى السعي الحثيث لتعليمه لغة المستعمر، وكان هذا الأمر من أهم الأهداف الأساسية للمحتلين، وكان شعارهم في هذه المرحلة **(من تعلم لغة قوم وعلمهم لغته فقد استعبدهم)**، وكان هذا تجسيدا لاعتقادهم بأن الجزائر فرنسية، لذلك فقد حاولوا تهيئة الأرضية العامة وفهم طبيعة الشعب الجزائري وهذا من خلال تعميم تعلم اللغة العربية ومعرفة اللهجات المحلية ، وتحديد خصائص كل منطقة على حدا ، لذلك فقد أسست ما يسمى بالكراسي أو الحلقات"[1] أربعة منها في العاصمة وواحدة بوهران والأخرى بقسنطينة وأشرف عليها جمع من المستشرقين[2].

أما بالنسبة لأهم هذه الحلقات الناشطة فقد كانت بمسميات تمويهية متعددة أولها :

مدرسة الآداب: افتتحت سنة 1880م، ساهمت بقوة في نشر المشروع الاستشراقي من خلال دروس تعليم اللغة العربية وترجمة معظم النصوص الفقهية والتشريعية التي يحتكم إليها الجزائريون، وبالتالي التمهيد لاستيلاب لغتهم وهويتهم ودمجهم في لغة وثقافة أخرى، وقد تولى هذه المهمة مجموعة من أبرز المستشرقين الفرنسيين منهم هوداس ومجموعة ممن سار في فلكهم من الجزائريين المتغربين أمثال (بلقاسم بن سديرة وعمر بوليفة ...الخ...). وقد أثرت هذه المدرسة بعد ازدهارها ونجاح مخططاتها على جميع المدارس الأخرى على المستوى الوطني، وقد أثر ذلك ايجابيا على فعالية الاستشراق وسرعة تحقيق المستعمر لأهدافه.

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص14.

[2] - أبو القاسم سعد الله، نفسه، ص231.

أما بالنسبة للنشاط الثاني لهذه المدارس فهو عملها على تشكيل لجان علمية أكاديمية متخصصة وتكليفها بالزيارة والإقامة في جميع مناطق الجزائر والعمل على إعداد تقارير علمية دقيقة تتعلق بجميع جوانب الحياة النفسية والاجتماعية الثقافية، وذلك بغية تحديد طبيعة سكان هذه المناطق؛ لتحديد أنجع الأساليب والطرق الفعالة والطرق الممكنة لتغريبهم وطمس معالم هويتهم لتحقيق أغراضهم وأهدافهم الاستعمارية، وفي هذا الصدد يقول الكاتب والمفكر المصري محمد البهي "إن التبشير والاستشراق كليهما دعامة الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي فكلاهما دعوة إلى توهين القيم الإسلامية الحاضرة والحض من اللغة العربية الفصحى، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب العربية وكذا بين الشعوب الإسلامية الحاضرة، والازدراء بها في المحافل الدولية والعالمية"[1].

وهذا ما سعى الاستعمار الفرنسي إلى تحقيقه بتسخير أقلام وأفكار المستشرقين ومن أبرز هؤلاء المستشرقين إميل ما سكري وهو أول مسؤول فرنسي يتولى إدارة هذه المدرسة لتمتعه بالخبرة الدقيقة فيما يتعلق باللغة العربية إضافة إلى خبرته الواسعة في معرفة خصائص سكان مختلف أجزاء القطر الجزائري، كان من المؤمنين بفعالية ونجاعة الاستلاب الحضاري في خدمة الاستعمار وتحقيق أهدافه التوسعية، كان يدرك جيدا أن معارك الثقافة والفكر نتائجها أضمن وتكلفتها أقل. لذلك فقد سعت هذه اللجان بقيادة هؤلاء المستشرقين الوقوف على خصائص سكان كل منطقة في الجزائر مع التركيز على اللغة باعتبارها الآلية المشتركة في توحيد الشعب الجزائري عقديا وجغرافيا وثقافيا فراحوا يدرسون بدقة كل ما تعلق ب "اللهجات والتربية والعادات والتقاليد، ولم يكن الغرض في ذلك دراستها لذاتها، ولكن للاستفادة منها في التقدم إفريقيا والسيطرة على الصحراء وثرواتها"[2].

وكانت مختلف الدراسات والتقارير التي تصدرها هذه الجمعيات غير موضوعية، وكانت موجهة ذات أهداف استعمارية، بوجهها الاحتلال لتحقيق، فناولوا الجوانب العقدية

[1] - محمد البهي، (1973)، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار العربي،دار الفكر ، ط1، بيروت ، ص519.

[2] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج8، ص102. 103.

بالكثير من التزييف والمكر وراحوا يتعقبونها لتكتسب خفايا ونفسية الشعب فكانت "الطرق الدينية والممارسات الشعائرية للجماعات الصوفية فازت بالنصيب الأوفر من الاهتمام منذ بداية الاحتلال الفرنسي"[1].

"ولم تتوقف انتقائية الباحثين على الموضوعات الأكثر إلحاحا وأهمية والكشف عن نفسيات الجزائريين، التي تعتبر عامل وحدة لهم، بل تعدت إلى البحث عما يفرقهم، فراحت تعزف على وتر العرف واللهجات المحلية، مدعية أنه لا بوجد روابط بين العرب والبربر، فرصدت الثقافة البربرية ورصدت الثقافة العربية لإجراء مقارنات ومماثلات تعكس نتائجها الاختلافات لضرب الوحدة الوطنية"[2].

فراح الاستعمار يدرس اللهجات في كل مناطق الجزائر ويبرز الفوارق بين سكانها، فدرس لهجة التوارق ولهجة القبائل والشاوية والبحث في أصولها محاولة منه لتفكيك الوحدة الوطنية لتفكيك اللغة العربية وعدّها لغة أقوام متوحشة غير متحضرة، خاصة أنه يدرك بأن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم وهي قاسم مشترك بين كل المسلمين وسكان شمال أفريقيا.. وللقضاء على هذه اللحمة يجب القضاء على اللغة الأم وتعوضها بلغة المستعمر، أي محاولة تمدين الجزائريين وإلحاقهم بركب التطور.

لكن الهدف الأساسي للاستعمار هو القضاء على ما له علاقة بمقومات هذا الشعب وشخصيته وكذلك بإبعاده عن دينه وذلك لمحاربة التعليم باللغة العربية، فبعد الاحتلال مباشرة سعى إلى إغلاق المدارس القرآنية وهدم المساجد وتحويلها إلى مدارس.

"لقد أدرك الاحتلال الفرنسي أن اللغة العربية لها علاقة وثيقة بالثقافة وهذه الأخيرة تشكل وعاء الهوية، ومحضن الشخصية الوطنية لأي شعب، كما أدرك أن فاقد لغته فاقد لشخصيته وهويته، فالفرد يتأثر بلغته بالغ الأثر، ويظل هذا التأثير شاملا لطرق

[1] - عبد الحميد بورايو، (1999)، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر، المجلة العربية للثقافة، السنة الثامنة، العدد36، مارس 1999م، ص267.

[2] - شايب الدور محمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، مرجع سابق، ص60.

تفكيره وتصوراته ومشاعره وسلوكاته، وعليه فقد سعى إلى محاربة اللغة العربية وفق منهج مدروس"[1].

-محاربة التعليم باللغة العربية يقول المفكر السوري عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتابه أجنحة المكر الثلاث؛ التبشير، الاستشراق، الاستعمار: "سقطت معظم الجامعات المنشأة في بلاد المسلمين تحت الأيدي الخفية للاستشراق والتبشير، والدوائر الاستعمارية، وغدت خططها ومناهجها وتوجيهاتها تخضع بطرق غير مباشرة لما تفرضه وتمليه هذه الأيدي الخفية"[2].

-محاربة المساجد والتعليم الديني، وإغلاقها وتحويلها إلى كنائس، أو مواقع إدارية أو عسكرية لخدمة مصالح الاحتلال.

-تقييد فتح المدارس العربية للتضييق على الجزائريين في التعليم منذ صدور قانون 18-10-1892م، والذي يقضي بوجوب الحصول على رخصة رسمية من قبل الاحتلال الفرنسي لمباشرة أي نشاط تعليمي بالنسبة للجزائريين.

- كما منع أيضا فتح المدارس القرآنية إلا بوجود ترخيص يجيز ذلك "يمنع فتح أي مدرسة لتعليم القرآن إلا بترخيص من السلطات، وإذا ما سمح لصاحبها تبعا للشروط السابقة، فإنه يمنع عليها تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها"[3].

وقد سعت فرنسا الاستعمارية بعد كل هذه السياسات التغريبية إلى إيجاد أتباع لها من خلال منحهم فرصة التعلم في المدارس الفرنسية لتوجيههم بعد ذلك لخدمة مصالحها وجعلهم أداة في يدها لتنفيذ سياساتها وخططها التغريبية وتجسيدها في مختلف القطاعات

[1] - نفسه، ص76.

[2] - عبد الرحمن حبنكة الميداني، (2000)، أجنحة المكر الثلاث (التبشير الاستشراق الاستعمار)، ط2، دار القلم، دمشق ،ص153.

[3] - تركي رابح، (1970)، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص151.

الحيوية في الجزائر بعد إلغائها وإبعادها لكل وجود للغة العربية، حيث أبعدتها عن المدارس الحكومية والنشاط الثقافي ووسائل الإعلام العامة واستبدلتها باللغة الفرنسية في كل المعاملات الإدارية الرسمية، والأوساط الاجتماعية والسياسية بشكل مقصود وشامل في كل الولايات والمقاطعات، حيث "عملوا على حصر أبناء الجزائر في نطاق ضيق للغاية، حيث حرموهم من تعلم لغتهم وثقافتهم العربية، وفي الوقت ذاته لم يعلموهم اللغة الفرنسية، فالمدارس التي أنشأوها للجزائريين، كانت أيضا تتمشى مع سياسة التجهيل"[1].

وبالمقابل تفننت فرنسا في جعل الشباب الجزائري أو العامة من الشعب يتبعون "اللغة الفرنسية ويقرؤون الأدب الفرنسي ويسمعون إلى الموسيقى الفرنسية، ويعرفون تاريخ فرنسا وأعلامها عبر التاريخ، ويترجمون لأشهر الكتاب..."[2].

ولم تكتف فرنسا بمحاربة اللسان العربي في الجزائر وفرنسة الشعب الجزائري، بل حاولت القضاء على كل ما تراه مصدرا من مصادر إحياء اللغة العربية، ومحاربته كل الوسائل المتاحة، بل وراحت تتطاول على هوية الجزائريين بمحاربة كل ما يمجد أيضا هذه اللغة باستحواذها ومصادرتها للموروث الثقافي الجزائري المكتوب باللغة العربية؛ من مخطوطات وأمهات الكتب والوثائق التاريخية والحضارية وهذا بإصدارها وسنها لقانون حكومي رسمي "يعتبر فيه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر"[3].

أي أنهم حاولوا الاستيلاء على كل ما له علاقة بالذاكرة الحضارية للشعب الجزائري، فسرقوا كل المكتسبات الفكرية واللغوية والدينية والثقافية للشعب الجزائري، مما كان محفوظا في الزوايا والمساجد والمكتبات ودور الثقافة وكل الهيئات الإدارية في الجزائر، فتنافس في ذلك المثقفون الفرنسيون والإداريون والعسكريون والصحافيون.. على عمليات النهب المنظمة، بمباركة الإدارة الاستعمارية وتشجيعها، وكان الهدف من الحصول عليها هو

[1] - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، المرجع نفسه، ص124.

[2] - مصطفى المنشاوي، (2001)، الفرنكفونية كأداة لتفجير الهويات الثقافية، مجلة العربي، العدد 551، أكتوبر 2001م، ص73.

[3] - تركي رابح، (1970)، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط3، ص150.

حرمان الشعب الجزائري من الاطلاع على تاريخه، وبالتالي حرمان الأجيال من ذلك، أو لإعادة تكييف مضامينها بعد تحريفها خدمة لأغراضها ومصالحها، أو لأجل تهريبها إلى أوروبا وبيعها.

وقد توجت السياسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر بعد جهود كبيرة وما لقته من مقاومة فكرية من قبل بعض التيارات الإصلاحية التي سعت جاهدة إلى الحفاظ على كيان الأمة، من خلال على الحفاظ على لغته ودينه ومحاربة سياسات التغريب والتجهيل التي مارسها الاحتلال الفرنسي، وكانت هذه الحركات بزعامة وقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي حاربت سياسة الاستلاب الحضاري بمجابهتها ورفضها لسياسة الإدماج، التي حاولت غرس القيم الفرنسية ولغتها في عقول وقلوب الجزائريين، أي السعي إلى إحكام الهيمنة الثقافية ومحاربة اللغة العربية ومقومات الهوية الحضارية.

وفي هذا السياق يقول أحد الضباط الفرنسيين في كتاب له بعنوان؛ المترجمون في الجيش الفرنسي، "أيالة الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعد أن تصبح لغتنا لغة قومية فيها، وحتى تتأقلم فيها الفنون والعلوم التي يقوم عليها مجد بلادنا، والمعجزة التي ينبغي تحقيقها، هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيا، ومتى كانت اللغة العربية لغة السلطة والإدارة، فإنها سوف لا تلبث أن تنتشر بين الأهالي، ولا سيما إذا وجدت مدارسنا إقبالا من الجيل الجديد.."[1].

وقد أعدت فرنسا لأجل ذلك فئة من أتباعها ثقافيا وفكريا، واجتهدت في تكوينهم وسلب كل مقوماتهم، وجعلهم أعوانا لها في سياسات الاستلاب والتغريب، التي فرضتها على الشعب الجزائري، وقد أقرت بذلك الإدارة الفرنسية وأتباعها بقولها: "كل هذه الجهود وهذه

[1] - عبد القادر حلوش، (1999)، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص64.

العناية، إنها من أجل تكوين رجال يكون لهم تأثير على مواطنهم ويساعدون على تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا"[1].

إضافة إلى ذلك؛ فقد عمد أيضا الاحتلال ومن خلفه المستشرقون إلى محاولة تقسيم المجتمع الجزائري، وإثارة الفتن في بعض المناطق من خلال إثارة النعرات والتفرقة العرقية، وإثارة الضغائن والفتن، وقد ركز الاستعمار الفرنسي جهوده "على منطقة القبائل، وظهرت كتابات عديدة منذ السنوات الأولى للاحتلال، مفادها أن سكان هذه المنطقة هم أقرب إلى الأوربيين منه إلى العرب، وعليه يجب فرنستهم وإعادتهم إلى النصرانية التي كانت سائدة بينهم خلال العهد العثماني"[2].

الخاتمة:

خلاصة يمكن القول: إنه مهما تعددت الأسباب التي ساهمت في احتلال الجزائر، فإن الاستشراق وجد في هذا الفعل سبيلا من سبل نيله من الشعوب العربية والحضارة الإسلامية، تنفيسا عما كان يكنه من عداء وحقد تاريخي وعقدي لهذه الأمة، فقد حاول بكل الوسائل المتاحة مستعينا بجملة من الآليات المفصلية والأساسية في تركيبة وتكوين الفرد والمجتمع الجزائري خاصة اللغة التي لعب على كل أوتارها لإضعاف مقومات الشعب الجزائري واستلابه حضاريا إلا أن كل هذه السياسات فشلت بفضل المخلصين من أبناء هذا الوطن المفدى، خاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وروادها الذين حاولوا إحياء هذه اللغة وربط هذا الشعب بمقوماته الحضارية.

[1] - بوعلام بالسايح، (1986)، الثقافة الإفريقية طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد96، ديسمبر، ص.

[2] - ينظر:- إسماعيل العربي، (1986)، الدراسات العربية في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص10-11.

قائمة المراجع :

- أبو القاسم سعد الله، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي،ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- أحمد الاسكندري وآخرون، (1934)، المفصل في تاريخ الأدب العربي، ج2، مطبعة مصر،القاهرة.
- أحمد عبد الحميد غراب، (1991)،رؤية إسلامية للاستشراق، المنتدى الإسلامي، ط2، القاهرة.
- إسماعيل العربي، (1986)، الدراسات العربية في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بوعلام بالسايح، (1986)، الثقافة الإفريقية طموحات ومتطلبات، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد96، ديسمبر.
- تركي رابح، (1970)، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- تركي رابح، (1970)، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط3.
- شايب الدور محمد، الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2009-2010.
- عبد الحميد بورايو، (1999)، موقف المؤسسة الرسمية من الثقافة الشعبية بالجزائر، المجلة العربية للثقافة، السنة الثامنة، العدد36، مارس 1999م.
- عبد الرحمن حبنكة الميداني، (2000)، أجنحة المكر الثلاث (التبشير الاستشراق الاستعمار)، ط2، دار القلم، دمشق.
- عبد القادر حلوش، (1999)، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد اللطيف الطباوي، (1991)، المستشرقون الناطقون بالانجليزية، ترجمة: قاسم السمرائي، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض، م ع السعودية.

- عقيلة حسين، (2004)، المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، ط1، دار ابن حزم، بيروت.
- محمد البهي، (1973)، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار العربي،دار الفكر ، ط1، بيروت.
- محمود حمدي زقزوق،(1997)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة.
- مصطفى المنشاوي، (2001)، الفرنكفونية كأداة لتفجير الهويات الثقافية، مجلة العربي، العدد 551، أكتوبر 2001م.